مأساة بنى سراج

ألفى بعض كتاب الغرب المحدثين مستقى خصبا لأقلامهم وخيالهم فى بعض حوادث التاريخ الإسلامى التى تمتاز بروعتها ولونها المشجى، وهم يجدون فيها مجالهم بالأخص متى كانت تحتوى على عنصر نسوى او غرامى . فنجد مصرع البرامكة وقصة العباسة أخت الرشيد مثلا تقدّم مادة طيبة لكتاب مثل لا هارپ[1]، ونجد حوادث سقوط غرناطة ومصرع دولة الإسلام فى الأندلس تقدّم مادة غزيرة لطائفة كبيرة من الكتاب والشعراء الأسبان يصوغونها فى ألوان زاهية من الفروسية وفى أساليب شعرية وغنائية مشجية . ويقتفى أثر هؤلاء بعض الكتّاب الغربيين مثل واشنطون إيرفنج الكاتب الأمريكى، إذ يقدم لنا طائفة ممتعة من القصص المتعلقة بحمراء غرناطة[2] وشاتوبريان الكاتب الفرنسى إذ يقدّم لنا قصته المعروفة: «مغامرات آخر بنى سراج»[3]. ومن الغريب أن تجذب هذه الألوان المؤثرة الزاهية معاً كتّاب الغرب قبل أن تجذب كتّاب المشرق، فلا يتخذونها مادة للقصص التاريخى الرفيع، والمسرحيات الممتعة المليئة بالعبر.

وسوف نعرض فى هذا الفصل لصفحة من هذه الصفحات الإسلامية المشجية، وهى مأساة بنى سراج التى ألهمت قلم شاتوبريان. بيد أنه يجدر بنا، قبل أن نعرض لجانبها القصصى الذى غلب على كتّاب الغرب، أن نحاول أن نلقى شيئا من الضياء على أصلها التاريخى.

ومن بواعث الأسف أن الرواية العربية لاتقدم إلينا فى هذا الموطن مادة تذكر، شأنها فى معظم المواطن والحوادث التى ترتبط بسقوط غرناطة . وكل ماهنالك أنها تشير إلى بنى سراج إشارة عابرة، فيذكر لنا المقّرى عند حديثه عن

---

(١) فى مسرحيته Les Barmécides .

(٢) Tales of the Alhambra.

(٣) Les Aventures du dernier Abencerage .

أصول الأسر العربية القديمة التى نزحت إلى الأندلس أن بنى سراج ينتمون إلى مذحج وطيّئ من البطون العربية العريقة التى وفد بنوها منذ الفتح إلى الأندلس وكان منزلهم بقرطبة وجنوبى مرسية[1]، ولا نجد بعد ذلك ذكراً لبنى سراج خلال حوادث التاريخ الأندلسى إلا فى مرحلته الأخيرة، أعنى مرحلة الانحلال التى انتهت بسقوط غرناطة وسقوط دولة الإسلام فى الأندلس. ففى هذه المرحلة تشير الرواية غيرمرة إلى الدور الذى لعبته الأسر القوية العريقة فى تاريخ مملكة غرناطة، وتخص بالذكر بنى سراج وبنى الزعزى، وتنوه بما كان بينهما من التنافس فى اجتناء السلطان والنفوذ، وما كان لذلك من أثر فى تطور الحوادث. وقد كان هذا التنافس طبيعيا بين الأسرتين؛ فبنو سراج يمثلون العصبية العربية القديمة، وبنو الزعزى من أصول البربر؛ والخصومة بين العرب والبربر شهيرة فى التاريخ الأندلسى. وكان بنو سراج فى أواخر أيام مملكة غرناطة يحتلون المقام الأول فى النفوذ، وينافسون بنى الأحمر ملوك غرناطة فى البذخ والجود والبهاء، ولهم شهرة خاصة فى ميدان الفروسية. وكان بنو الأحمر يتوجسون أحيانا من منافسة هذه الأسر القوية ولا سيما بنى سراج. ولما ارتقى السلطان سعد الملقب بابن إسماعيل النصرى عرش غرناطة حاول أن يقضى على نفوذ بنى سراج بوسائل عنيفة سافرة فلم يستطع، لوجاهة الأسرة، ورسوخ مكانتها؛ ونشبت من جراء ذلك فتنة خطيرة فى غرناطة (سنة ١٤٦٢م) كادت تحتمل عرشه. وكان تنافس الأسر والعرش من نذر الانحلال والتفكك التى أودت غير بعيد بمصير مملكة غرناطة.

وفى عهد خلفه السلطان أبى الحسن ظهر بنو سراج على مسرح الحوادث مرة أخرى. وكان السلطان أبو الحسن قد أقصى زوجه الشرعية الأميرة عائشة الحرة وولديها محمداً ويوسف وزجهم إلى أحد أبراج الحمراء نزولاً على تحريض زوجه الأسبانية الحسناء إيزابيلا دى سوليس التى تعرفها الرواية الإسلامية باسم «ثريا». وانقسمت غرناطة عندئذ إلى فريقين خصمين، يؤيد أحدهما السلطان وزوجه الأسبانية، ويؤيد الآخر الأميرة الشرعية وحق ولدها فى العرش. وكان بنو سراج فى مقدمة الفريق الثانى وقد اضطلعوا بأكبر دور فى مناصرة الأميرة عائشة ومعاونتها مع ولديها على الفرار من سجن الحمراء (سنة ١٤٨٢ م)؛ وبذا

---

(١) راجع نفح الطيب ج ١ ص ١٣٨.

استطاعت أن تحشد أنصارها فى وادى آش، وأن ترفع لواء الثورة . ولم يغفر السلطان أبو الحسن لبنى سراج هذا الموقف قط. ويقال إنه عمد فيما بعد إلى تدبير كمين مروع لإهلاكهم فى أحد أبهاء الحمراء، وهو البهو الذى عرف فيما بعد، وما يزال حتى اليوم يعرف ببهو بنى سراج .

بيد أن الرواية تختلف هنا، فتنسب تدبير هذا الكمين وتنسب المأساة كلها إلى عصر السلطان أبى عبدالله محمد ولد السلطان أبى الحسن وخلفه فى العرش، وهو الذى سقطت على يده غرناطة وانتهت دولة الإسلام فى الأندلس . وهنا تتخذ الرواية لون القصص المغرق، وتقول لنا إن المأساة ترجع إلى أسباب غرامية خلاصتها أن محمد بن سراج (أو ابن حامد) عميد بنى سراج وهو من أكابر الفرسان والسادة، هام بحب أميرة من البيت المالك، فوجد عليه السلطان وقرر سحق الأسرة كلها. وتنسب بعض الروايات هنا هذا الحادث إلى عصر السلطان أبى الحسن أيضا، وتقول لنا إن الأميرة التى هام بها ابن سراج كانت تسمى «فايمة» وهى على الأغلب من بنات السلطان، وأن السلطان دبر كمينا لهلاك بنى سراج بالاتفاق مع ولده أبى عبد الله . ولكن معظم الروايات تقدم إلينا القصة فى وضع آخر، وهو أن آل الزعزى خصوم بنى سراج اللدّ حاولوا القضاء عليهم بمختلف الوسائل، فوشوا بهم لدى السلطان أبى عبدالله واتهموهم بالتآمر عليه وسعيهم إلى خلعه وقتله، واتهموا كبيرهم ابن حامد (أو محمد بن سراج) بتهمة أشنع وهى أنه يتصل بالسلطانة وهى الأميرة مريمة اتصالا غراميا، وأنه رئى معها أكثر من مرة فى أحراش حدائق جنة العريف . فثار أبو عبد الله لهذا الاجتراء الصارخ على عرشه وعلى شرفه، وقرر سحق بنى سراج جميعاً، ودبر مع آل الزعزى كمينا محكما لإهلاكهم، فدعا أكابر الأسرة ذات يوم إلى مأدبة أقامها بقصر الحمراء، وأدخلوا إلى بهو الحفل واحداً بعد واحد بترتيب معين من باب البهو المذكور، وكلما دخل أحدهم اقتاده جماعة من آل الزعزى إلى الفسقية الرخامية التى بالبهو، ونحروه على حافتها، وأخفوا فى الحال جثته، حتى هلك معظمهم على هذا النحو المروع . ولم يفطن فى النهاية لهذه الكمين الدموى سوى قلائل منهم أنبأهم وصيف لهم استطاع أن يتسلل داخل البهو، وأن يخبرهم بما يقع . وبلغ من قتل منهم يومئذ ستة وثلاثين من أنجاد الفرسان والسادة . وهكذا سحقت الأسرة الشهيرة وفقدت كل نفوذها وسلطانها . وسمى المكان الذى تمت

فيه تلك الجريمة الشنعاء من ذلك الحين « بهو بنى سراج » وهو البهو المقابل لبهو الأسود الشهير. وما زالت ثمة بقع سوداء فى أرض البهو الذى وقعت فيه المأساة تزعم الرواية أنها بقع من دم القتلى، وأنها لن تمحى أبدا. وتزيد الأسطورة على ذلك أنه ما زالت تسمع فى هذا البهو فى بعض الليالى أنات خافتة وقعقعة سلاح، وأنه حدث أكثر من مرة أن رأى حراس الحمراء فى جوف الليل بعض الجند المسلمين وقدلمعت أثوابهم الزاهية وأسلحتهم البراقة يقطعون البهو جيئة وذهابا.

تلك مأساة بنى سراج كما تقدمها إلينا الروايات والأساطير والأناشيد الأسبانية. أما الرواية العربية فلسنا نجد فيها أثراً لهذه القصص المغرق، بل لسنا نجد فيها ذكراً لبنى سراج فى حوادث غرناطة الأخيرة، وهى أيضاً ضنينة علينا بتفاصيل هذه الحوادث المؤسية التى انتهت بذهاب دولة الإسلام فى الأندلس. ولكن الأدب الأسبانى يتناول هذه الحوادث فى كثير من الأقاصيص والملاحم المغرقة. وأشهر مصادر هذه التراث كتاب وضع فى هذا العصر وزعم كاتبه، وهو أسبانى من أهل مرسية يدعى جيتر بيرز دى هيلا، أنه نقله من التواريخ العربية، وهو مزيج من بعض الوقائع التاريخية المحرفة، وكثير من القصص الخرافية، يدور معظمه على حوادث غرناطة الأخيرة ومعاركها الأهلية ومنافسات بنى سراج وبنى الزعزى وغيرهم من أمجاد غرناطة. وقد ذاع هذا المؤلف فى أسبانيا ولا سيما فى ريف الأندلس وترجم إلى لغات عدة. بيد أنه يبدو من سياقه أنه لا يمكن أن يكون ترجمة لروايات عربية، وكل ماهنالك أنه مزيج من الأساطير النصرانية والشعبية المغرقة التى ذاعت فى ذلك العصر عن حوادث غرناطة، وأذكاها خيال الأحبار والفرسان والشعراء، وأذكتها بالأخص عوامل دينية وسياسية خاصة.

فى سنة ١٨٢٦ ظهرت قصة شاتوبريان « مغامرات آخر بنى سراج » التى وضعها قبل ذلك بأعوام عقب زيارته لأسبانيا. وقد وقعت حوادث هذه القصة بعد سقوط غرناطة بأربعة وعشرين عاما أعنى فى سنة ١٥١٥ م وبطلها فتى أندلسى يدعى ابن حامد، يصفه شاتوبريان بأنه سليل بنى سراج وآخر عقبهم. وقد نزح بنو سراج عقب سقوط غرناطة إلى أحواز تونس، وعاشوا هنالك على مقربة من أطلال قرطاجنة القديمة عيشة متواضعة فى غمر الحسرات والذكريات

المحزنة، واشتغلوا بالتطبيب بعد الفروسية، وهلكوا واحداً بعد الآخر حتى لم يبق منهم سوى ابن حامد . وكان فتى وسيم الطلعة جم الذكاء والفطنة والكرم ، وهى الصفات التى بها عرف آله. توفى أبوه وهو فى الثانية والعشرين من عمره، فاعتزم أن يحج إلى غرناطة موطن آبائه القديم ، فركب البحر إلى الأندلس وجاز إلى غرناطة واتخذ هنالك صفة طبيب عربى جاء ليبحث عن الأعشاب النادرة فى جبال الأندلس.

ففى ذات يوم أخذ يطوف بربوع غرناطة وحمرائها وحدائقها الملوكية ، وقلبه يخفق بالذكريات المؤلمة . ولما جاء المساء لم يستطع أن يقاوم شعوره ، فعاد يطوف بأحيائها طول الليل حتى ضل طريقه وأدركه الصباح . وبينما هو يسير هائم اللب إذ وقعت عيناه على فتاة أسبانية رائعة الجمال تخرج من منزلها ووراءها وصيفة فسحره جمالها أيما سحر ، ودهشت هى لمنظره وثيابه العربية، فتقدمت منه بظرف وسألته : أهو غريب ؟ وهل ضل طريقه ؟ فأجابها بألفاظ وعبارات رقيقة أن نعم ، فسارت أمامه بظرف حتى قادته إلى باب الخان الذى ينزل فيه .

وترك منظر الحسناء فى قلب ابن حامد أثراً لا يمحى وشغف بها أيما شغف ، ولبث أياما يطوف هائما فى غرناطة وهو يتصورها فى كل رؤية وكل مقابلة ، حتى كان ذات يوما يجول على ضفاف نهر « حدارة » على مقربة من حدائق جنة العريف فسمع صوت قيثارة وغناء ، فخفق قلبه واقتحم حرش الأشجار ، فألفى نفسه بين جماعة من الفتيات ذعرن لمقدمه ، وصاحت إحداهن : «هذا هو السيد العربى » وكانت هى فاتنة قلبه .

كانت دونا بلانكا — وهو اسمها — سليلة أسرة عريقة تنسب إلى السيد الكمبيادور، وأبوها الدوق سانتافى، ولها أخ فتى يدعى دون كارلوس. وكان الدوق قد استقر فى غرناطة فى بعض أملاك الأسر المسلمة التى وهبت لأبيه ، وكانت بلانكا لفرط جمالها وذكائها وظرفها معبودة الأسرة ، وكانت تمرح فى ذلك اليوم مع نفر من صاحباتها . فما كاد يراها ابن حامد حتى صاح أنه يبحث عنها كما يبحث الظمآن عن الماء . فأجابته بلانكا أنها كانت تنشد قصة بنى سراج وهى تفكر فيه. فخفق قلبه وكاد يصيح بها أنه « آخر بنى سراج » لولا أنه خشى أن يثير الكشف عن شخصه ريب السلطات .

وهنا قدم والد بلانكا الدوق ، فبادرت إليه قائلة: «هذا هو السيد المسلم الذى حدثتك عنه يا أبت، وقد عرفنى وجاء يشكرنى على ما أسديت إليه» . فرحب الدوق

بابن حامد ! وأنس الجميع بمقدمه ، وأخذوا يسألونه عن بلاده وأحواله، فكان يجيب بظرف وفصاحة ، وكان يتحدث القشتالية كأحد أبنائها ، ثم تناولوا الحلوى والشيكولاتة ، وانقضى اليوم فى غناء ورقص وطرب ثم عاد الجميع إلى غرناطة ، ووعد ابن حامد أن يلبى دعوة الدوق لزيارته .

سرى إلى ابن حامد وبلانكا حب عنيف متبادل . وكانت بلانكا تقول فى نفسها : « آه لو دخل فى دينى وكان يحبنى لتبعته إلى آخر العالم . » وكان ابن حامد يقول لنفسه : « آه لو أسلمت بلانكا ! » وأفضى إليها بحبه ذات يوم وهما يتنزهان فى أبهاء الحمراء ، فأجابته كيف يمكن ذلك وهو عربى كافر وهى أسبانية نصرانية ؟

واستدعى ابن حامد فجأة إلى تونس ؛ إذ كانت أمه على شفا الموت ، فاستأذن من حبيبته فى السفر ، وأقسم لها أنه سوف يحبها إلى آخر نسمة من حياته ، فأجابته باكية أنها سوف تنتظره كل عام ، وأنها سوف تذكره إلى الأبد ، وتقبله زوجا يوم يدخل دينها .

وعاد ابن حامد إلى تونس فألفى أمه قد توفيت ، وقضى بين أطلال قرطاجنة أشهراً وهو هائم اللب ، حتى جاء يوم السفر إلى غرناطة ، فركب البحر إلى مالقة وكانت بلانكا هنالك ترقب مقدمه خلال التلال المشرفة على الثغر . فلمحت ذات يوم مركبا عربيا منشور الشراع ، فهرعت إلى المرسى ولمحت عربيا يرتدى ثيابا فخمة ولم يكن سوى ابن حامد ، فبعثت إليه تدعوه إلى مكانها ، فهرع إليها ابن حامد وارتمى أمام قدميها ، وقدم إليها هدية طريفة هى غزالة وضعت فى سلة ، قائلا إنها تشبهها خفة ورشاقة . وسارت بلانكا ووالدها الدوق وابن حامد إلى غرناطة ، وهنالك أنفق الحبيبان أوقاتا سعيدة فى التجوال والرياضة وتبادل العواطف المضطرمة ، ولكن كلاهما لبث راسخ العزم على التمسك بدينه . فكلما دعته بلانكا إلى اعتناق دينها دعاها هو بدوره إلى اعتناق دينه .

وعاد ابن حامد إلى موطنه ، ثم سافر فى العام التالى إلى غرناطة وقصد إلى منزل بلانكا ، وكان والدها الدوق غائبا فى مدريد ، فلقى أخاها الدون كارلوس وكانت تعبده ويعبدها حبا ، ولكن تولته الدهشة وانكمش فؤاده حينما ألفى عند قدمى بلانكا فتى لم يره من قبل ، وهو أسير فرنسى من أصل نبيل يدعى لوتريك توثقت بينه وبين الدون كارلوس أواصر الصداقة منذ أسر فى موقعة بافيا ، وعاد معه إلى أسبانيا . ورحبت بلانكا بابن حامد وحياه دون كارلوس برقة ، فانحنى

ابن حامد أمام الفتاة وانصرف لفوره ، وساور لوتريك الشك فى نظراتهما فانصرف هو أيضا . وهنا أفضت بلانكا إلى أخيها بحقيقة الأمر وباحت له بحبها لابن حامد، فصاح بها ساخطا كيف تحب سليلة السيد الكنبيادور عربيًّا ومسلماً، وقد كان يظن أنها تقترن بلوتريك. فأجابته أنها حرة فى أمرها وعواطفها ، بيد أنها لن تغدو على أى حال زوجة لمسلم .

وهرع دون كارلوس إلى ابن حامد ودعاه إلى البراز ، فأجابه إلى طلبه وتبارزا خارج غرناطة فغلبه ابن حامد ولكنه ترفع عن إيذائه . وهنا جاء لوتريك وبلانكا إلى مكان المبارزة مسرعين وانتهى الأمر بسلام واحتجب ابن حامد حينا نزولا على نصح بلانكا .

ولبث ابن حامد تفترسه مختلف العواطف والمشاعر. وجاءته بلانكا ذات يوم وهى شاحبة ذابلة وخاطبته بحدة وذكرت له كيف تذوى صحتها فى حبه ؛ فهجس بخاطره مدى لحظة أن يقبل التنصير وينتهى الأمر. وفى الغد كان إلى جانب بلانكا وأخيها الدون كارلوس ولوتريك فى حفل أنيق فى جنة العريف ، وأخذ كل من الفتيان الثلاثة يلقى بعض أناشيد الفروسية ، وأنشد ابن حامد قصة من وضع شاعر من بنى سراج ، وتبين من أناشيد دون كارلوس أن جد ابن حامد وهو فارس بنى سراج أيام حرب غرناطة قد لقى حتفه على يد أسرة حبيبته، وأن أسرتها هى التى استولت على تراث بنى سراج ، فعندئذ كشف ابن حامد عن شخصه ، وأعلن أنه آخر « بنى سراج » ، وقدم الدليل على نسبته خاتم بنى سراج معلقا فى عنقه بسلسلة من الذهب، وتضرع إلى حبيبته أن تنسى كل شىء ، وأنه يحلها من كل شىء وأنه يضع نفسه تحت تصرفها لتأمره بما يفعل . فعندئذ أشارت اليه بلانكا أن يعود إلى الصحراء ثم أغمى عليها .

فركع أمامها ابن حامد ثم غاب عن الأنظار . وفى نفس الليلة سافر إلى مالقة وركب البحر إلى وهران ، وهنالك انخرط فى سلك قافلة الحاج المسافرة إلى مكة ولم يعرف بعد ذلك مصيره قط .

ومرضت بلانكا حتى أشرفت على الموت، ثم تماثلت وعاشت فى حزن مقيم وعزلة مطبقة، تذهب كل عام إلى مالقة تحدج البحر فلا ترى أحداء وتقضى أيامها فى التجوال فى أبهاء الحمراء . وقد توفى والدها من الحزن ، وقتل أخوها فى مبارزة ، واختفى لوتريك فلم يسمع به أحد .

يقول شاتوبريان : وهنالك فى تونس عند الباب الذى يؤدى إلى خرائب قرطاجنة توجد مقبرة ، وبها قبر منعزل ليست له أية علامة مميزة ، يصفونه بأنه قبر « آخر بنى سراج » .

تلك هى القصة التى ألهمتها ذكريات بنى سراج قلم الكاتب الفرنسى الكبير. ومن الواضح أنها لاتقوم على أصل تاريخى ، ولكنها تقوم كمعظم القصص المتعلق بحوادث سقوط غرناطة وأنجادها الأعلام ، وفروستها الأخيرة على تراث الأساطير والأناشيد الأسبانية المغرقة . على أنها تبدو بما يسبغه عليها شاتوبريان من بلاغته وفنه ، وبما يتخللها من ذكريات غرناطة والأندلس ، قطعة من الخيال المؤثر . وهى ليست إلا مثلا من أمثلة عدة استطاع فيها الخيال الأوربى أن يجد فى صفحات التاريخ الأندلسى الأخيرة كل عناصر الإلهام والفن الرفيع .

محمد عبد الله عنان